تفسير أوجه استعمال حروف الجر

الدكتور
محيي الدين عبدالرحمن رمضان
جامعة اليرموك ــ الاردن

استقر عند العلماء عامة مذهبان في هذا الموضوع : أحدهما امتناع تناوب حروف الجر بعضها في موضع بعض . وأما الذي يظهر انه كذلك ، فيُحمل على وجه من التأويل ، ولاسيما التضمين . وثانيهما وقوع التناوب بينها ، وشواهده كثيرة ، وفيه وجوه من التعليل قوية . وأكثر العلماء لايعنيهم غير ذلك . واذا تحدث المتحدثون وكتب الكاتبون ، مضى بهم الكلام ، واستوفت الكتابة حقها من حيث استعمال هذا الصنف من ألفاظ اللغة . غير أن طائفة منهم وممن يهتمون بدقة الفرق في استعمال حرف الجر وغيره من الكلام ، وصواب الأسلوب ، يستدركون كثيرا من ذلك بالتوجيه والتقويم ، ويردّون بعضه بالخطأ والتجهيل . ولباحث كريم وصف لهذا الجانب يقول : « وللعلماء فيه مذاهب شتى ، ودروب متباينة ، وتأويلات مختلفة ... لأن النظر فيه عمل من أعمال العقل ، تنقدح الحقائق للناظر فيه بعد طول تأمل وإمعان نظر ... »(١) .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فماذا وراء هذين المذهبين غير مافُهم واستقر عند الناس منهما ؟ وهل هناك مذاهب أخرى تفسر ظاهرة التناوب اذا تحقق وقوعها ؟ وما تفسير استعمال هذه الحروف اذا لم تعدّ تناوبا في ما بينها ؟ وماذا في كلام العلماء من قدماء ومحدثين في ذلك ؟

---

(١) تناوب حروف الجر في القرآن للدكتور محمد حسن عواد / ص ٥ .

تقتضي الاجابة عن هذا كله أن نعرض للمذهبين المتقدمين بما يوضحهما، ذلك أن في عرضهما تجديدا لفهم مراد القائلين بهما •

فأما المذهب الأول ، وهو القائل بمنع التناوب بين الحروف ، فان فيه عدة وجوه ، لاتشرح المنع ، ولا تقدّم تفسيره بقدر ماتشرح وقوع الظاهرة ، وتحاول أن تضع لها أحكاما وقواعد • ويظهر ذلك فيما يلي :

(أ) بُطلان النيابة بين الحروف بقياس ، مثلها في ذلك مثل أحرف الجزم وأحرف النصب ، لايقوم أحد الصنفين مقام أحد الصنف الآخر(٢) ، وإن ذُكرت بعض الشواهد من الجزم بالناصب وعكسه •

(ب) بعض ذلك متوهم (٣) ، ونحو هذا عند أهل البصرة مؤوّل بما يناسب اللفظ ، نحو قوله تعالى : (ولأصلبنكم في جذوع النخل) (طه ٧١) • فالحرف (في) ليس بمعنى (على) ، لكن شبه المصلوب لثباته في جذع النخلة ، بمن حل في الشيء واستقر • وقوله تعالى : (هل لك الى أن تزكى) (النازعات ١٨) ، وإذا قيل : هل لك ، استعمل معه حرف (في) ، أي: هل لك في كذا ؟ لأن الآية من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعاء ، تقديره : أدعوك وأرشدك الى أن تزكّى وهذا هو التضمين ، أي : هو لون من الاتساع والمجاز(٤) ، أي : أن يكون الفعل الذي تعدّى بحرف الجر المذكور بمعنى فعل آخر يتعدّى بحرف الجر • ومثله قوله جل وعز (من أنصاري الى الله) (آل عمران ٥٢) • فلما كان المعنى : من ينضاف في نصرتي الى الله ؟ جاز أن يؤتى بـ (الى) ، وهو ما وضحه ابن يعيش بقوله (٥) :

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

---

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ١١١ •

(٣) الجنى الداني في حروف المعاني ٢٥٢ •

(٤) الخصائص ٢/٣٠٨ ، وهمع الهوامع شرح جمع الجوامع ٢/٣٠ •

(٥) شرح المفصل ٨/١٥ •

« والتحقيق في ذلك أن الفعل اذا كان بمعنى فعل آخر أحدهما يصل الى معموله بحرف والآخر يصل بآخر ، فان العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه ، ايذانا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر » • والحق أن كثرة وقوعه تبطل ادعاء التوهم فيه •

(جـ) وقوعه مقتصر على موضع دون آخر ، وبحسب أحوال دعت اليه وسوّغته • وهو ماذكر أبو الفتح ابن جني من قبوله بالتناوب ، مقيدا ذلك بأن مجيء الحرف بمعنى حرف آخر في موضع بعينه لا في كل موضع ، وبأنه بحسب دواع ومسوغات ، فان انتفى هذا القيد امتنع التناوب(٦) • وذكره ابن يعيش في قوله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق ••) (المائدة ٦)(٧) • وفيه وجه ثان : أن • (الى) هنا غاية في الإسقاط ، وذلك أنه لما قال : (اغسلوا وجوهكم وأيديكم) ، تناول جميع اليد كما تناول جميع الوجه • واليد اسم الجارحة من رأس الأنامل الى الإبط ، فلما قال : (الى المرافق) فصار إسقاط الى المرافق ، فالمرافق غاية الاسقاط ، فلم تدخل في الاسقاط ، وبقيت واجبة الغسل • وتفسير ذلك في ما نص عليه بعض العلماء ، وهو ما يفيد غير التضمين ، نحو قولهم(٨) : وأوّلوا ما تقدم على التضمين وغيره ، فأما (غيره) أي تحتمل أي شيء فضلا عن التضمين ، وهو مثل ما تقدم من كلام ابن يعيش السابق •

(د) كون الحرف له معنى أصلي ، ومعان أخَر ترجع الى المعنى الأصلي • فاللام تفيد الاختصاص ، وهو معنى لها ، وتفيد معنى التعليل •

---

(٦) الخصائص ٢/٣٠٨ .
(٧) شرح المفصل ٨/١٥ .
(٨) همع الهوامع ٢/٢٨ .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

وعدّ ابن هشام لها اثنين وعشرين معنى. وكذا حرف (من) يفيد ابتداء الغاية، ويفيد معنى التبعيض ، وعدّ ابن هشام له خمسة عشر معنى ، وقد أثبت ذلك مثل المبرد وابن السراج (٩) .

(هـ) الحرف على معناه حقيقة أو مجازاً . وهذا منصوص عليه في كتب النحو . فقد ذكر المرادي حرف (في) ، وأنه لايكون إلا ظرفاً حقيقةً أو مجازاً ، وبمثل ذلك قال السيوطي(١٠) .

(و) التناوب بمسألة ينقصها الاطّراد ، وإذا صحّت أو صحّ بعضها، كان الأولى أن تحمل على السماع(١١) . وشواهد التناوب تقبل التأويل على نحو مقبول . ثم إن الظاهرة لاتتصل بالتناوب الذي هو مذهب أهل الكوفة ، ولا بالتضمين ، وهو مذهب أهل البصرة . لكنّها ترجع الى التركيب والى دلالات الألفاظ(١٢) ، وهي مسألة معجمية . وهذا واضح في أن لكل لفظ معنى واحداً أو أكثر يؤدي عنه بحسب السياق ، ولاحاجة الى التضمين(١٣) . ومما يوضح هذا المذهب ماجاء في كلام صاحبه ، وهو أن قوله جلّ وعزّ : (سَأَلَ سائلٌ بعذاب واقع) ، فالفعل (سأل) عنده ليس بمعنى دعا ، ولايتضمن معنى دعا ، ولكن من معانيه دعا ، والفرق بين الفعلين دقيق . ثم يذكر بعد ذلك أن في الآية وجوهاً كثيرة ، منها أن الفعل بمعنى دعا وحرف الجر ، وهو الباء ، في موضعه ، كما عند أبي حيان ، وأن في الآية قراءة أخرى رويت لنافع وابن عمر وابن عباس ، وهي بغير همز ، واحتج لها بما روي عن زيد بن ثابت من تفسيره لـ « سائل » قوله : في جهنم واد يسمى سايلاً ،

---

(٩) الجنى الداني ١٠٩ ، ٣١٥ ، ومغني اللبيب ١٠١ ، ٣٠٨ .

(١٠) الجنى الداني ٢٥٢ ، وهمع الهوامع ٢/٣٠ .

(١١) شرح التصريح ٢/٤ .

(١٢) تناوب حروف الجر في القرآن / ص ٢٠ .

(١٣) تناوب حروف الجر في القرآن / ص ٦ .

وساق خبره(١٤). وصاحب هذا الرأي يبطل التناوب ، مستدلاً بأن التضمين مسألة دلالية صرفية ، أي أنها مسألة لغوية معجمية (١٥) .

والمذهب الثاني ، وهو الذي يقرر التناوب ، يتبين فيما يلي :

(أ) هو مذهب أهل الكوفة عامة ، وهو كثير الاستعمال ، ووصفه ابن الحاجب بقوله : « وإقامة بعض حروف الجر مقام بعض غير عزيز»(١٦) ، ووضّحه بمثل قوله : وتعرف «من» الابتدائية بأن يحسن في مقابلتها «الى»، أو مايفيد فائدتها ، نحو قولك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ لأن معنى « أعوذ به » ألتجىء اليه ، وأفِر اليه . فالباء ههنا أفادت معنى الانتهاء»(١٧).

(ب) الحروف مشتركة في معان يقع بعضها موضع بعض . فابن عقيل يذكر أن انتهاء الغاية يدل عليه أحرف : الى وحتى واللام ، وإن كان الأصل في ذلك يرجع الى « الى » ، ويحتج لذلك باختلاف جر كل حرف واستعماله (١٨) . وعزي الى الفراء أن (حتى) تجر نيابة عن « الى » ، وهي في ذلك مثل الواو في نيابتها عن « رُبَّ »(١٩) .

(جـ) التناوب حملا على الضد . وهذا ما ذكره ابن جني من مذهب الكِسائي في وقوع الحرف موضع غيره ، نحو قول الشاعر :

إذا رضيت عليَّ بنو قُشَيرٍ
لعَمرُ الله أعجبني رضاها

---

(١٤) تناوب حروف الجر في القرآن / ص ٣٣ .
(١٥) المصدر السابق ٧١ .
(١٦) شرح الكافية ٣٢١/١ .
(١٧) المصدر السابق ٣٢١/٢ .
(١٨) شرح ابن عقيل ١٧/٢ .
(١٩) همع الهوامع ٢٤/٢ .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

فعليَّ في موضع عني ؛ لأن الرضى عن الشيء حبه والاقبال عليه . فقد حمل « رضي » على «سخط» ، كما يحمل على نظيره ، وهو ماتقدم في كلام الفراء. وقد استحسن أبو علي الفارسي هذا المذهب . وذكر ابن جني أن هذا من مذهب سيبويه في المصادر من حمل أحدها على ضده(٢٠) .

(د) التناوب من الترادف . وهو ما حاول ابن جني توضيح ظاهرة التناوب به ، فقد ذكر أنه شاهد على من ينكر وقوع لفظين في اللغة بمعنى واحد . فقد وصف من حاول أن يجد فرقاً بين قعد وجلس ، وبين ذراع وساعد ، بأنه متكلف ثم خلص الى مذهب البصريين في الظاهر ، وهو التضمين . فالرفث في قوله جل وعز : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم) (البقرة ١٨٧) بمعنى الافضاء ، «وهل لك» في قوله : (هل لك الى أن تزكى) بمعنى : أدعوك الى (٢١) .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامى

(هـ) التناوب لغة قوم . وأمثلة ذلك فيما روي عن مثل أبي زيد الأنصاري والأخفش والفراء ، في نحو قول الشاعر :

لعلَّ أبي المِغوار منك قريب

فذلك لغة عقيلية . وأنكرها قوم وتأولوا البيت . ومثل ذلك الجر بـ (متى) ، كما قال الشاعر :

شَرِبْنَ بماءِ البحر ثمَّ ترَفَّعَتْ
متى لُجَجٍ خُضرٍ لهنَّ نَئيجُ

وحكي : وضعها متى كمه . وهذا من لغة هذيل(٢٢) .

---

(٢٠) الخصائص ٢/٣١١ .
(٢١) الخصائص ٢/٣١٠ .
(٢٢) همع الهوامع ٢/٣٣ ، ٣٤ .

(و) تناوب الحروف بشروط • ومن أبرز الشروط تقارب المعاني بين الحروف التي يستعمل بعضها في موضع بعض ، ويسمى هذا بالمعاقبة ، وذلك نحو : فلان بالدار ، وفي الدار • ومما حكي منه : كنت بالمال حرباً وفي المال حرباً ، وهو يستعلي الناس بكفه وفي كفه • وقول طرفة بن العبد :

وإن يلتقِ الحيُّ الجميعُ تُلاقِني
الى ذِروة البيت الكريم المُصَمَّدِ

فالباء تفيد الالتصاق والاتصال ، و (في) تفيد الاحاطة والاحتواء • وإن لم تتقارب المغاني ، فلا (٢٣) •

(ز) تداخل أصناف الأفعال أحدث التناوب • وذلك أن طائفة من الأفعال لم تتجاوز الفاعل الى المفعول بأنفسها ، فاستعين بهذه الحروف لايصال أثر الأفعال الى مفعوليها ، نحو : عجبت من فلان ، ونظرت الى علان • وكل صنف من هذه الأفعال اختص بطائفة من الحروف • وذكر السيوطي نحو هذا بقوله : وما وقع بعد وجب أو شبهه أو كبر أو صعب ونحوه مما فيه ثقل ، أودل على تمكن نحو : (أولئك على هدى) ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت(٢٤) • ويفهم هذا الوجه أي التداخل مما نقله السيوطي من كلام ابن فلاح في المغني قوله : « تعلق حروف الجر بالفعل يأتي لسبعة معانٍ ، تعلق المفعول به ، وتعلق المفعول له كجئتك للسمن واللبن ، وتعلق الظرف ، ك : أقمت بمكة ، وتعلق الحال ، ك : خرج بعشيرته ، وتعلق المفعول معه نحو مازلت بزيد حتى ذهب ،وتعلق التشبيه بالمفعول به نحو قام القوم حاشا زيد وخلا زيد ؛ لأنها نائبة عن الا ، والاسم نحو : ياسيد ما أنت من

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

---

(٢٣) الاصول في النحو ١/٤١٤ .

(٢٤) همع الهوامع ٢/٢٨ .

سيد »(٢٥) • وحكى ابن الأعرابي عن العرب ، نحو : مررت زيداً ، على اعمال الفعل بحسب المعنى ، لكنه قليل شاذ(٢٦) •

ومذهب المانعين من التناوب والقائلين به على ما وقفنا عليه ، يوهم أن التناوب يشمل جميع الحروف •

وهذا مما يشكل في فهم الموضوع ونتائجه بالرغم من أن بعض أصحاب المذهبين خص بكلامه على الظاهرة بعض الحروف دون بعض ، وجاء النص عند أكثر هؤلاء في كتبهم على تصنيف الحروف .• فأبو بكر ابن السراج ذكر عدة أحرف ملازمة للجر ، وهي : « من ، الى ، في ، الباء ، اللام » ، ولم يذكر بينها بقية الحروف • ونص على أن لـ : « رُبَّ » باباً لخروجها عن أسلوب أخواتها(٢٧) • وأوضح المتأخرون هذا الجانب ، وتابع اللاحق السابق في ذكر عدة الحروف وأقسامها ، واختلفوا في أصنافها وفي عملها واختصاصها• فسيبويه يعد « لولا » حرف جر تختص بالمضمر ، واختلفوا معه في اعراب ما بعدها • ونصَّ ابن عقيل على هذا الخلاف بقوله : « وقلَّ مَنْ ذكر كي ولعل ومتى في حروف الجر »(٢٨) • وجعل ابن عصفور حروف الجر أربعة أقسام • وذكر السيوطي أن ثلاثة من الحروف لا تجر الا شذوذاً ، وهي : « لعل وكي ومتى » • وعدة منها لاتجر الا الظاهر ، وعدة تجر الظاهر والمضمر • ومثل ابن الدهان جعل « من » أقوى حروف الجر(٢٩) • وزعم بعض العلماء أن « على » اسم دائماً وهو معرب ، لعدم ظهور علامة البناء فيها ، ولا يشبهها حرف في معناها وقلة تصرفها • وجعل بعض آخر ذلك

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(٢٥) الاشباه والنظائر ١٠٦/٢ .

(٢٦) شرح المفصل ٧/٨ – ٩ ، ومعاني القرآن (الاخفش) ٣٧٤/٢ .

(٢٧) الاصول في النحو ٤٠٨/١ .

(٢٨) شرح ابن عقيل ٣/٢ .

(٢٩) الاشباه والنظائر ١٠٤/٢ .

قياساً ، وأضاف اليها « عن والكاف ومذ ومنذ » ؛ لأن فيها معنى الحرف ، فحملت على (على)⁽³⁰⁾ .

ولو أن هذه المسألة جعلت في أصناف الحروف مما وقع بعضه موقع بعض ، والنصوص التي اشتملت على ذلك ، والمعاني المرادة في كل حرف ، ولاسيما النص العزيز ، لجاءت النتائج أوضح ، وانتفى كثير من الخلاف .

ومما ألحق بالمسألة من غموض كثرة الافتراضات التي أراد العلماء بها توضيح مذهبهم وإبطال مذاهب الآخرين ، فمن ذلك نحو : « ألا ترى أنك اذا أخذت بظاهر هذا القول غفلا هكذا لامقيداً ، لزمك عليه أن تقول : سرت الى زيد ، وأنت تريد : معه ، وأن تقول : زيد في الفرس ، وأنت تريد : عليه ، وزيد في عمرو ، وأنت تريد : عليه في العداوة.. ونحو ذلك مما يطول ويتفاحش »⁽³¹⁾ . ونحو : « والبصريون قالوا : لو كان لها هذه المعاني ، لوقعت موقع هذه الحروف ، فكنت تقول : وليت عليه ، أي : عنه ، وكتبت على القلم ، أي : به ، وجاء زيد على عمرو ، أي : معه والدرهم على الصندوق ، أي : فيه ، وأخذت على الكيس ، أي : منه..»⁽³²⁾ ولاشك أن مثل هذا أراد به أصحابه توضيحا وتوجيها ، وكان يكفيهم مابين أيديهم من النصوص يوضحون ويشرحون بها .

وكلا المذهبين يريد أصحابه تفسير المسألة . والمانعون يضيّقون نطاق حدوث الظاهرة بشرط التضمين في العامل الذي يدخل على الحرف ، وبالتأويل مما يقبله اللفظ ، وهو ما عبّر عنه بعضهم بالاتساع⁽³³⁾ .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

---

(٣٠) همع الهوامع ٢٩/٢ .
(٣١) الخصائص ٣٠٨/٢ .
(٣٢) همع الهوامع ٢٨/٢ .
(٣٣) الاصول في النحو ٤١٤/١ ، وشرح المفصل ١٥/٨ .

ولبعض المعاصرين من المتابعين لأهل البصرة في ضوابطهم وأحكامهم مذهب جديد ، يقول في المسألة : « ووجدتها مسألة معجمية تندرج في بحث دلالات الألفاظ على وجه مباين للوجه أو الوجوه التي رسمها السلف ، ذلك أن لكل لفظ معنى واحداً أو أكثر يؤديه من غير حاجة الى تضمين »(٣٤) ويقول في موضع آخر : « أن مسألة التضمين دلالية صرفية ، أي : مسألة لغوية معجمية »(٣٥) ، ويقول في موضع ثالث : « والحق أن المسألة راجعة الى التركيب والى دلالات الألفاظ ، والدليل على ذلك أن البلغاء والفصحاء ، على مستوى الاستعمال ... يأبون هذه النيابة ، ولا يجرون كلامهم مجراها »(٣٦) . ومثل هذه النتائج قيمة ، وذات شأن في مجال البحث اليوم ؛ لانها تعقد في تناول الظاهرة بين أكثر من علم من علوم العربية . وأما تقريره بأن المسألة معجمية تندرج في بحث دلالات الألفاظ ، فالأمر غير ذلك اذا فهم أن الجانب المعجمي كما يفهم من قوله يقتصر على لفظ الكلمة في ذاتها . والأمر في معجمات العربية وفي معجمات اللغات الأخرى لاتقتصر على لفظ الكلمة في ذاتها . ولايفوت الباحث الكريم هذا الجانب في المعجمات ، وهو مااصطلح عليه أن الألفاظ في المعجمات بحسب المعاني في سياق الكلام ، وليس من كلام الا اخذ بجانبين : أحدهما مذاهب أهل اللغة في الاستعمال ، والآخر مراد المتكلم الذي جعله في الكلام المشتمل على تلك الألفاظ ، أي : أن ألفاظ الكلمات ومعانيها في المعجمات مستوفاة من التركيب ، والا فكيف تم للباحثين وعلماء النحو واللغة النظر في المسألة ؟ وآخر ما في كلام الأخ الباحث ما ذهب الى تقريره من أن مسألة التناوب

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(٣٤) تناوب حروف الجر في القرآن / ص ٦ .
(٣٥) المصدر السابق / ص ٧١ .
(٣٦) المصدر السابق / ص ٢٠ .

يعوزها الاطراد ، وحمل ما صح منها على السماع(٣٧) • فأما السماع ، فأمر تنتهي عنده المسألة ، لان التناوب اليوم لايقع في الفصيحة الا خطأ او جهلا في أغلبه ، ويقع في العاميات بحسب تطور كل لهجة وعادة المتكلمين بها • وماذا يقول ، وهو يعلم أن أكثر ماجاء من التناوب انما هو في النص العزيز ، فبم يصف ذلك ؟ وأما الاطراد ونقصه في هذه الظاهرة فلا ينبغي أن يفهم منه الاخذ به واتيانه شيئا مرفوضا ، فالشواهد من غير النص العزيز ، مما جاء به ، وناقشه ، تعني أن لطائفة المبدعين من الأبْيِناءِ أن يفعلوا ذلك دون حرج •

ومما يفسر المسألة ماذكره سيبويه ، وهو من قبيل السماع قوله (٣٨) : وسألته عن قوله : على كم جذع بيتك مبني ؟ فقال : القياس النصب وهو قول عامة الناس • فأما الذين جروا فانهم أرادوا معنى(من ، ولكنهم حذفوها ههنا تخفيفا على اللسان ، وصارت (على) عوضا منها •

ومثل ذلك : الله لا أفعل ، واذا قلت : لاها الله لا أفعل ، لم يكن الا الجر ، وذلك أنه يريد : لا والله ، ولكنه صار (ها) عوضا من اللفظ بالحرف الذي يجر وعاقبه » • ففي هذا نيابة حرف عن آخر محذوف أثر الجر في اللفظ • وكلام سيبويه صريح في تفسير التناوب قوله : فما اتسع من هذا في الكلام فهذا أصله(٣٩) •

ومما يوضح المسألة في فهم مذهب أهل الكوفة ماجاء من مذهب الكسائي أن جر ما بعد « حتى » لايكون بها ، وانما هو بـ « الى » ، بحجة أن العامل ينبغي أن يكون لازما بصنف من الكلام الاسماء أو الافعال ، « وحتى » تدخل الصنفين(٤٠) ، ونحو ذلك « حتى » العاطفة تدخل على

---

(٣٧) المصدر السابق / ص ١٦ . (٣٨) الكتاب ١٦٠/٢ .

(٣٩) الكتاب ٢١٧/٤ .

(٤٠) شرح الكافية ٣٢٤/٢ .

مجرور ، فالاختيار اعادة الجار معها دفعا لكونها الجارة نحو : نزلت بالقوم حتى بسعد(٤١) .

وهناك ملاحظة اقتصر ذكرها على المحدثين ، فالمرحوم عباس حسن يرد جواز وضع حرف موضع حرف الا بشروط لانه « يؤدي الى افساد المعاني والقضاء على الغرض من اللغة »(٤٢) . ويقول الدكتور محمد حسن عواد : « وليعلم القارىء أيضا بما أسلفناه أن مسألة التعاوز يأباها الاستعمال ، وتفضي الى مشكلات لغوية ، والى اضطراب كثير .. »(٤٣) . ولم أقف على مثل هذه الملاحظة عند المتقدمين ، بل قرأت في أكثر ماكتب في المسألة عندهم نحو قول ابن يعيش : « هي متساوية في ايصال الافعال الى ما بعدها وعمل الخفض وان اختلفت معانيها في أنفسها ولذلك قال هي فوضى في ذلك ، أي : متساوية .. »(٤٤) . ففي كلام ابن يعيش ، ومثله جواب عن الملاحظة السابقة . وفيه أن مسألة التناوب واقعة لاشك فيها . ولها تفسير غير ماتقدم ، سوف يلي ثبت ما جاء من الظاهرة في النص العزيز وعدة نصوص أخرى . ففي المعلقات السبع بشرح الزوزني اثنا عشر موضعا : نصيب الباء منها : (٧) ، والسين موضع ، واللام موضعان ، و « عن » و « على » لكل منهما موضع ، وفي الاصمعيات واحد وعشرون موضعا : للباء (٤) ، و « من » : (٢) ، و « الى » : (٢) ، و « على » : (٧) ، و « عن » : (٥) . وفي المفضليات اثنان وعشرون موضعا : لحرف « عن » (١) ، والباء (٤) ، واللام (٢) ، و « الى » (٣) و « على » : (٦) .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

---

(٤١) المصدر السابق ٢/٢٢٦ .
(٤٢) النحو الوافي ٢/٥٣٧ .
(٤٣) تناوب حروف الجر في القرآن / ص ٤٤ .
(٤٤) شرح المفصل ٨/٧ .

وفي النص العزيز سبعة وعشرون ومئة ، لحرف الباء (٢٣) ، و « في » : (١) ، و « الى » : (١٤) ، واللام : (١٠) و « من » : (١٤) ، و « عن » : (١٧) ، و « على » : (٤٨) .

وأغلب الشواهد التي عرض لها الباحثون ، على مدى قرون هي ، من النص العزيز . ولا أملك أن أقطع بها من حيث كميتها في الشعر والنثر من نصوص الشواهد ، الا ماذكرته مما هو في المعلقات والاصمعيات والمفضليات . ولا معنى لهذا الا أن المسألة مما يتصل بالاعجاز في النص العزيز ، وبالقدرة البيانية في الكلام شعراً وانشاءً ، أي : أن المعنى اقتضى أن يكون هذا الحرف في موضعه من الكلام لاداء الغرض . وهذا هو تفسير ماذهب اليه الباحثون من تسمية هذه الظاهرة بالتناوب ، وهي تسمية مجحفة وملبسة .

وكلام أصحاب المذهبين من المتقدمين ، لايفهم منه تقعيد للظاهرة بالموافقة أو بالمنع ، وانما يفيد تفسيرا لها ، أو اجتهادا في تفسيرها ، وان كانت نصوص شواهدها تعرض نماذج تحتذى عند أهل البيان . والدليل على ذلك تقسيم أهل اللغة والنحو لحروف الجر مابين مختص بالجر ، ومشترك بين الاسم والحرفية ومشترك بين الفعلية والحرفية ، ومختلف فيه (٤٥) .

ولا يعني كلام المانعين ومحاولتهم تعليل وقوع الحرف في موضع الاخر الا أن للظاهرة عندهم وجهين : وجها هو الذي في نصوص شواهدها ، وهي غير مطردة الا في مستوى من النصوص التي تمتاز ببيان واعجاز فيه ، ولذا فهم مهتمون بتفسيره والبحث عن وجهه ، ولاسيما في النص القرآني ، وهو

---

(٤٥) شرح ابن عقيل ٢/٣ ، ٧ .

بعض الاعجاز الذي تضمنه الكتاب الكريم . ووجها آخر ، هو ماتقدم ذكره في نصوص لسيبويه وابن جني(٤٦) ، وان كان المشهور من كلام الاخفش مايقطع بهذا الجانب ، ويجعل الترادف تفسيرا للظاهرة ، فهو يقول في نحو : (مستخف بالليل وسارب بالنهار) : فيقول مستخف يقول ظاهر ، والسارب المتواري . وقد قرئت أخفيها أي : أظهرها ، لانك تقول : خفيت السر ، أي : أظهرته ، وأنشد :

ان تكتموا الداء لا نخفيه   وان تبعثوا الحرب لانقعد

وزعموا أن تفسير « أكاد » أريد ، وأنها لغة ، لان « أريد » قد تجعل مكان « أكاد » مثل (جدارا يريد أن ينقض) ، أي يكاد أن ينقض ، فكذلك « أكاد » انما هي أريد ، قال الشاعر :

كادت وكدت وتلك خير ارادة
لو عاد من لهو الصبابة ما مضى(٤٧)

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ويقول في نحو : « يستحبون الحياة الدنيا على الاخرة »، فأوصل الفعل بـ « على » كما قالوا : ضربوه في السيف ، يريدون بالسيف ، وذلك أن هذه الحروف يوصل بها كلها ، ويحذف ، نحو قول العرب : نزلت زيدا ، تريد : نزلت عليه(٤٨) ، ونحو ذلك ما ساقه الثعالبي في الظاهرة في فصل عنوانه : « مجمل وقوع حروف المعنى موقع بعض ، قال » : أم : يقع موقع بل ، كما قال عز وجل : (أم يقولون شاعر) ، أي : بل يقولون شاعر . قال سيبويه : أم : تأتي بمعنى الاستفهام ، كقوله تعالى : (أم تريدون أن تسألوا رسولكم) ، أي : أتريدون أن تسألوا رسولكم .. ان الخفيفة بمعنى : لقد ،

---

(٤٦) الكتاب ٢/١٦٠ والخصائص ٢/٣١٠ .
(٤٧) معاني القرآن ٢/٣٧٠ .
(٤٨) معاني القرآن ٢/٣٧٤ .

كما قال تعالى : (وان كنا عن عبادتكم لغافلين) ، أي : ولقد كنا ... الا بمعنى لكن كما قال عز ذكره : (لست عليهم بمسيطر الا من تولى وكفر) معناه : لكن من تولى وكفر ، وقيل : في معنى قول الشاعر :

وبلدة ليس بها انيس
الا اليعافير والا العيس(٤٩)

وهذا ما اختاره بعض المحدثين . يقول المرحوم عباس حسن : « ولا غرابة أيضا في اشتراك عدد من الحروف في تأدية معنى واحد لان هذا كثير في اللغة ويسمى المشترك اللفظي »(٥٠) . ويصف الظاهرة بقوله : « فما الحرف الا كلمة كسائر الكلمات الاسمية والفعلية ، وهذه الكلمات الاسمية والفعلية تؤدي الواحدة منها عدة معان حقيقية لا مجازية »(٥١) ، ويقرر اختياره بقوله فاذا كان المعنى المراد هو من الشيوع ، والوضوح وسرعة الورود على الخاطر بالصورة التي ذكرناها ، ففيم المجاز أو التضمين أو غيرهما ؟ ان المجاز أو التضمين أو نحوهما يقبلان ، بل يحتمان حين لا يتبدر المعنى المراد الى الذهن ولا يسارع الذهن الى التقاطه ، بسبب عدم شيوعه شيوعا يجعله واضحاً جلياً ، وبسبب عدم اشتهاره شهرة تكفي لكشف دلالته في يُسر وجلاء . أما اذا شاع واشتهر وتكشف للذهن سريعاً فان هذا يكون علامة الحقيقة كما قلنا ، فلا داعي للعدول عنها ولا عن قبولها براحة واطمئنان .

وهذا رأي نفيس أشار بالأخذ به والاقتصار عليه كثير من المحققين(٥٢) .

وجانب مما جاء في شواهد الظاهرة من غير النص القرآني إنما هو من قبيل اختلاف اللغات ، أي اللهجات . وقد مرت الاشارة الى هذا المذهب .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

---

(٤٩) فقه اللغة وسر العربية ٥٣١ . (٥٠) النحو الوافي ٢/٥٤٢ .
(٥١) النحو الوافي ٢/٥٤٠ .
(٥٢) المصدر السابق ٢/٥٤١ وتناوب حروف الجر في القرآن / ص ٢٠ .

فيما أثبته البغدادي زيادة توضيح قوله ، قال المبرد في الكامل : وبنو كعب ابن ربيعة بن عامر يقولون : رضي الله عليك ...(٥٣) .

فيما أحصيته من الحروف في النصوص أن الحروف التي وقع بعضها موقع بعض أصناف : صنف لايبدو أنه وقع بعضه في موقع بعض ، لغلبة الاستعمال فيه ، مثل الأحرف : « في ، الباء ، اللام ، الى » . وصنف فيه خصائص ، وهو مشترك بين الاسمية والحرفية ، ويفيد المعنى بدقة ، مثل : عن ، على . وصنف ثالث قلّ وقوعه ، وهو من شأن استعمال قوم دون غيرهم ، مثل : متى ، لعل . والحجة في هذا ما ذهب اليه أهل اللغة والنحو من تقسيم الحروف من حيث هذا الوجه .

ومن نافلة القول إن معاني الحروف مستقراة من النصوص التي وردت فيها ، أي أن استعمالها ومذاهب المنشئين حدّدت لها معاني ، ما بين شائع واضح وقليل غامض . وذلك بحسب الأغراض وفنون القول . وفي هذا يقول السيوطي : « في نحو (كَتَبَ على نفسه الرحمة) لتأكد التفضل ، لا الايجاب والاستحقاق . وكذا في نحو (ثم إن علينا حِسابَهم) لتأكيد المجازاة »(٥٤) .

قال بعضهم : واذا ذُكرت النعمة في الغالب مع الحمد ، لم تقترن بـ « على » واذا أريدت النعمة أتي بها ، ولهذا كان صلى الله عليه وسلم اذا رأى مايعجبه قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات» . واذا رأى ما يكره قال : « الحمد لله على كل حال » . فيما قرره الزركشي أن الحرف لا يعطي في سياق الكلام الواحد أكثر من معنى بعينه(٥٥) ، بل نص على ذلك بقوله : « في الكلام على المفردات من الأدوات والبحث عن معاني الحروف

---

(٥٣) خزانة الأدب ٢٨٣/٣ .

(٥٤) الاتقان ٢٠٢/٢ .

(٥٥) البرهان في علوم القرآن ١٨١/٤ .

مما يحتاج إليه المفسر ، لاختلاف مدلولها . ولهذا توزع الكلام على حسب مواقعها ، وترجح استعمالها في بعض المحال على بعض بحسب مقتضى الحال. كما في قوله تعالى : (وإنّا أو إيّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) ، فاستعملت « على » في جانب الحق ، و « في » في جانب الباطل ..»(٥٦) .

وفي بناء النحو على كلام العرب شعرا ونثرا واستيفاء أحكامه منه ، نهج لاستعمال حروف الجر كما هي فيه ، أي : أن يحتذي أرباب الكلام والبيان أصحاب النصوص الشواهد في الاتيان بحرف الجر بما يفي بغرضهم من المعنى الذي يريدون في كل موطن . وهم في ذلك بازاء عدة مستويات من استعمال حرف الجر . وفي النص القرآني ما يؤنس البلغاء في ايقاع حرف مما جاء في النص العزيز موضع حرف آخر لمعنى يرونه أوفق ، ولأسلوب يطلبونه أوفى .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

على أن المستوى الغالب استعمال الحروف بحسب أصنافها ، وبمقتضى الأغراض والمعاني التي يؤديها أسلوب أو أساليب دون أخرى . وقد ثبت هذا وتقرر بكلام العرب . وإن تجاوز بعض المنشئين ذلك وعدل عنه الى شيء ، فان في فن الأساليب ــ ومذاهب الدارسين لها ــ مايكشف عن المراد عند هؤلاء وغايتهم .

والاختيار من هذا كله الاستعمال واختلاف أغراض المتكلمين بالفصيحة والترادف الذي يدخل فيه تباين اللغات واللهجات ، والأخذ بما يفسّر الظاهرة من حيث وقعت من كلام مفسري النص القرآني ، وبصنف من الحروف يكثر فيه التناوب . فهذا أجدى على اللغة أداء ، وعلى المتكلمين بها سعة وبحبوحة.

---

(٥٦) البرهان في علوم القرآن ٤/١٧٥ ، والاتقان في علوم القرآن ٢/١٤٩ .